رازي نابلسي (*)

عن معارضة الصهيونية بدوافع دينية يهودية ذاتية

[قراءة في كتاب «المعارضة اليهودية للصهيونية» ليعكوف رافكين]

شكّل تنظيم اليهود على أساس قومي، وتحويلهم من جماعة دينية داخل قوميات مختلفة إلى قومية مستقلة عن المجتمعات والدول التي عاشوا فيها، حجر أساس المخطّط الصهيوني ككل وركيزته الأولى التي انطلقت منها فكرة الوطن القومي لليهود وملاذهم الآمن. وكانت الخطوة الأولى التي سعت إليها الصهيونية هي تشكيل الهوية القومية اليهودية أولًا كشرط استمرار وحجر أساس يرتكز عليه المشروع الصهيوني برمّته. لذا، فإن هذا التحوّل الذي طرأ على حياة اليهود كأفراد وجماعات دينية اعتادت على ممارسة طقوسها الدينية داخل مجتمعات مختلفة، أدّى إلى خروج أصوات يهودية، ولو ليس بالحجم الكبير، معارضة وتعارض الصهيونية ليس من دوافع أخلاقية فقط، بل من دوافع دينية يهودية ذاتية.

يسلّط الكاتب يعكوف رافكين في كتابه «المعارضة اليهودية للصهيونية» الضوء على تاريخ معركة كانت ولا تزال بين تيّارات يهودية دينية خاصة الحريدية منها والصهيونية كفكرة سخّرت اليهودية وجعلت منها قومية تتماهى مع سياساتها الاستعمارية.

يسرد الكاتب تاريخ الصراع بين اليهودية والصهيونية، هذا الصراع التاريخي الذي يبدأ بتأريخه منذ انشقاق أول من استعمل مصطلح «صهيونية» عنها، وهو ناتان بيرنباوم، يهودي نمساوي شغل منصب الأمين العام للحركة الصهيونية العالمية وتركها ليصبح من أشهر منتقديها بعد مضي سنوات عديدة

(*) صحافي فلسطيني- حيفا

ويشدّد رافكين في كتابه البحثي، على أنه وعلى الرغم من النجاحات التي حقّقتها الحركة الصهيونية في المجالين الاقتصادي والعسكري، إلّا أن الحرب المستمرة منذ أكثر من ١٠٠ عام على أرض فلسطين تنذر بأن الحركة لم تحقّق النصر الذي أرادته بعد ليس بسبب المقاومة العربية لها فقط، بل أيضًا لرفض اليهود للوعي العلماني القومي، الذي يعد ركيزة من ركائز المشروع الصهيوني ككل، في إشارة إلى اليهود «الحريديم».

فيها وخذلانها له، بحسب رافكين.

ويشدّد رافكين في كتابه البحثي، على أنه وعلى الرغم من النجاحات التي حقّقتها الحركة الصهيونية في المجالين الاقتصادي والعسكري، إلّا أن الحرب المستمرة منذ أكثر من ١٠٠ عام على أرض فلسطين تنذر بأن الحركة لم تحقّق النصر الذي أرادته بعد ليس بسبب المقاومة العربية لها فقط، بل أيضًا لرفض اليهود للوعي العلماني القومي، الذي يعد ركيزة من ركائز المشروع الصهيوني ككل، في إشارة إلى اليهود «الحريديم».

وعلى الرغم من أن الصهيونية ادّعت أن هذا الكيان الذي أسسته على أرض فلسطين، هو الوطن القومي لليهود، يطرح الكاتب التأثير الصهيوني على الوعي اليهودي، فهذا التغيير، الذي كانت العلمانية القومية ركيزة له، أثّر ليس فقط على الجماعة اليهودية وحوّلها من مجموعات لها قاعدة دينية مشتركة، إلى مجموعة قومية لها مصير واحد مشترك، بل كان له التأثير الأكبر أيضًا على الوعي اليهودي ومصطلح أو معنى «إسرائيل» داخل هذا الوعي، حيث تحوّلت «إسرائيل» التوراتية وبحسب نصوص التوراة الأصلية من دين، ينتمي الإنسان إليه من خلال الإيمان وتطبيق الشعائر الدينية والتوراتية، إلى دولة ذات حدود جغرافية، مقتبسًا أقوال البروفسور يعكوف نيوزر «الدولة أصبحت كيانا أكثر أهمية من اليهود».

في الفصل الثاني من القسم الأول، يتطرّق الكتاب إلى قضية استيعاب اليهود داخل المجتمع الأوروبي، خاصة الطبقة العلمانية الوسطى منهم، وتأثير سيرورة رفض المجتمع الأوروبي لهم على نشأة الصهيونية تحت عنوان «الاستيعاب والعلمانية».

ويشدّد الكاتب على أهمية الإشارة إلى أنه وعلى الرغم من رفض المجتمعات الأوروبية لهؤلاء اليهود، بعد تركهم الدين اليهودي ومحاولتهم الانسلاخ عنه بهدف الاندماج في المجتمعات الأوروبية أسوة بها خاصة الانسلاخ عن الديانة المسيحية، إلّا أنهم لم يعودوا إلى الدين اليهودي بعد نبذهم، وحتى في ظل الملاحقات النازية لليهود التي تعتبرها الرواية الصهيونية الملاحقة الأكبر والأضخم لليهود في التاريخ، رفضوا العودة إلى الدين اليهودي وفضّلوا المؤسسات الثقافية على العودة إلى الديانة، مستنتجًا أن الصهيونية كانت «حزبا نخبويا» تأسست على يد نخبويين منبوذين كانوا يحلمون بالحداثة، وبحثوا عن علاج لاكتئابهم. ويحاول الكتاب، في هذا الفصل تحديدًا، أن يبيّن التناقض الثقافي الديني، ما بين المؤسسين الصهاينة واليهودية كديانة وممارسة ونهج حياة.

ولا يتوقّف الكتاب عند التناقض بين الصهيونية واليهودية على صعيد التنظير والاجتهاد الديني الذي يرتكز على الاجتهاد في المؤسسات الدينية، والحقل الأكاديمي الذي يصب في غالبيته في الخارج، ويذهب أكثر إلى التناقض في الجهاز التعليمي والمفاهيم التي يتلقّاها الطالب الإسرائيلي، كمحاولة لفهم التناقض ما بين الصهيونية والتعاليم اليهودية الحريدية. والتناقض الجوهري، الذي يطرحه الكتاب بهدف التدليل على الخطر الذي تكنّه الصهيونية للحريدية وتعاليمها، ينبع أساسًا من التناقض في النظر إلى الرواية التاريخية لليهود، وخاصة خراب الهيكل وخروجهم من البلاد قبل نحو ألفي عام. إذ يراها الحريديم عقابًا لهم على أفعالهم ويحاولون عدم تكرارها، وأخذت

في القسم الثاني من الكتاب، يتطرّق الكاتب إلى قضية الهوية الجديدة التي تشكّلت لدى اليهودي، خاصة اليهودي الإسرائيلي الجديد الذي أرادته الحركة الصهيونية أن يكون يهوديًا علمانيًا في الوطن القومي لليهود. وهنا يذهب الكاتب إلى أهمية التشديد على أن الحركة الصهيونية والمشروع الصهيوني ككل، لم يقرّب أحدًا لليهودية يومًا، بل عمل على إبعاد اليهود عن اليهودية والتركيز على اليهودية القومية بصورتها التي أرادتها نسخة عن يهود روسيا من حيث القومية والتنظيم على أساس قومي يهودي، والحداثة الأوروبية بشكل الدولة وعاداتها.

الصهيونية في المقابل تنظر إلى التاريخ اليهودي من خلال التاريخ الأوروبي. ما أدّى بحسب الكتاب، إلى تكوّن ذاكرة جماعية يهودية حريدية، وذاكرة جماعية أخرى إسرائيلية تعتمد أساسًا على الأنا والآخر، تتجسّد في تعاليم متناقضة ومفاهيم تتناقض جوهريًا بكل ما يتعلّق بنظرة اليهودي إلى ذاته، الأولى ترى في اليهودي البطل والمتفوّق العسكري، والأخرى ترى في هذا اليهودي، سببًا يستوجب العقاب عليه. وذلك على الرغم من أن الحريديم غير الصهاينة ينقسمون إلى فئتين لا تتعديان مئات الآلاف من مجمل اليهود في العالم وهي نسبة قليلة جدًا. الأولى تعارض الصهيونية والثانية غير صهيونية لكنها لا تعارضها وتتماهى معها على أنها نظام سياسي مؤقت كأي نظام سياسي آخر، فكلا الفئتين ترفضان فكرة القومية اليهودية.

في القسم الثاني من الكتاب، يتطرّق الكاتب إلى قضية الهوية الجديدة التي تشكّلت لدى اليهودي، خاصة اليهودي الإسرائيلي الجديد الذي أرادته الحركة الصهيونية أن يكون يهوديًا علمانيًا في الوطن القومي لليهود. وهنا يذهب الكاتب إلى أهمية التشديد على أن الحركة الصهيونية والمشروع الصهيوني ككل، لم يقرّب أحدًا لليهودية يومًا، بل عمل على إبعاد اليهود عن اليهودية والتركيز على اليهودية القومية بصورتها التي أرادتها نسخة عن يهود روسيا من حيث القومية والتنظيم على أساس قومي يهودي، والحداثة الأوروبية بشكل الدولة وعاداتها. وفي هذا السياق، أصبحت اليهودية، بالإضافة إلى التأثير الذي طرأ على اللغة العبرية من حيث توحيد اللغة لتصبح اللغة المعتمدة بشكل يومي وما يصاحبه هذا من مخاطر على اليهودية كدين. أمّا التخوّف الأساسي الذي يطرحه الكتاب في هذا السياق، أي سياق المعارضة اليهودية الدينية الحريدية للحركة الصهيونية، فهو الصدمة التي سيتعرّض لها اليهود نتيجة الصهيونية واستغلالها للرواية الدينية وخاصة «الخلاص» في هذه الرواية، الذي تؤججه الحركة الصهيونية وتصوّر ذاتها على أنها الملجأ الأخير لليهود في العالم ومخلّصهم في دولتهم، وبالتالي مصير هؤلاء اليهود، بعد سقوطها وانهيار الفكرة التي حتمًا ستشكّل برأي الكاتب صدمة لهم تبعدهم عن الدين وأي محاولة لتقريبهم منه.

ويبحث القسم الثالث من الكتاب، فكرة «الخروج والميعاد» والمقصود منها هو إلى «أرض إسرائيل»، وتأثير استغلال الصهيونية لها. ويشدّد في افتتاحية القسم على علاقة الصهيونية بالأرض في فلسطين، مشدّدًا أنه أيديولوجي قومي سياسي، أكثر ممّا هو ديني توراتي. والصهيونية، كحركة علمانية قومية استعمارية، تسعى من خلال اليهودية ومعرفة البلاد إلى تجاهل العربي وليس فعلًا معرفة التاريخ اليهودي للبلاد، أي بما معناه ربط الرموز اليهودية والتركيز عليها بهدف تهميش الآخر الذي يسكن البلاد من آلاف السنين لتحقيق أهداف استعمارية على الأرض وليس دينية. وبعد أن قام الكاتب في الأقسام السابقة بالتأكيد على الفروق الأخلاقية ما بين الصهيونية وممارساتها، واليهودية كديانة، يذهب في هذا القسم لقضية الجرائم التي ترتكبها الصهيونية على أرض فلسطين، مؤكدًا أن الجرائم، الذي يعتبرها المناهضون للصهيونية منافية لليهودية

وبالإضافة إلى القضايا التوراتية الدينية التي استند إليها المشروع الاستيطاني الصهيوني على أرض فلسطين منذ النكبة، شكّل التفوّق العسكري، ركيزة من ركائز هذا المشروع الاستيطاني. إلّا أن الحريديم، لا يزالون يرفضون الانخراط في صفوف هذه المؤسسة العسكرية على الرغم من انخراطهم في مؤسسات عدّة داخل الدولة العبرية التي قام الصهاينة بتأسيسها. إن التغيير الأساسي الذي أحدثته الصهيونية في هذا السياق، بحسب الكتاب، هو تحويل اليهود من عقلية «الإنسان الضعيف صاحب القوة في الإيمان والتوراة»، إلى العكس المتطرّف.

وسببًا في خراب الهيكل وخروج اليهود، لها خطيئة أكبر من أن يقوم بها اليهودي في أي بقعة أخرى من العالم، ولها تأثير أكبر على الديانة والجماعة على الصعيد الإلهي، في إشارة إلى تخوّف اليهود الحريديم المعارضين للصهيونية من إسقاطاتها على اليهودية كديانة ومقدّساتها في الأمد البعيد.

وبالإضافة إلى القضايا التوراتية الدينية التي استند إليها المشروع الاستيطاني الصهيوني على أرض فلسطين منذ النكبة، شكّل التفوّق العسكري، ركيزة من ركائز هذا المشروع الاستيطاني. إلّا أن الحريديم، لا يزالون يرفضون الانخراط في صفوف هذه المؤسسة العسكرية على الرغم من انخراطهم في مؤسسات عدّة داخل الدولة العبرية التي قام الصهاينة بتأسيسها. إن التغيير الأساسي الذي أحدثته الصهيونية في هذا السياق، بحسب الكتاب، هو تحويل اليهود من عقلية «الإنسان الضعيف صاحب القوة في الإيمان والتوراة»، إلى العكس المتطرّف. إن هذا التطرّف والطرح الذي تبنّته وطبّقته الحركة الصهيونية، أدّى إلى معارضة الكثير من القيادات الدينية اليهودية التي ترى فيه بالإضافة إلى كونه السبب الأساسي بحسبهم لخراب الهيكل الثاني قبل ألفي عام سفك دماء لن يجلب لليهود عامة إلّا المزيد من المصائب. إن اليهود الصهاينة من أصول روسية، بحسب الكتاب، هم أكثر الداعين إلى القوة المتمثّلة بالمؤسسة العسكرية، بدءًا من صاحب نظرية كي الوعي، زئيف جابوتينسكي، وصولًا إلى هؤلاء الذين أداروا ظهرهم للأصوات اليهودية الدينية التي رفضت بداية القوة العسكرية والصراع مع السكّان الأصليين والأمم في العالم. ولم يتوقّف تبرير الاستيطان في فلسطين بدوافع دينية، فالصهاينة الروس، الذين ساهموا بصورة شبه كاملة بتطبيق النظرية الصهيونية، منحوا المشروع الاستيطاني بعدًا أيديولوجيًا أكثر ممّا هو ديني أيضًا من خلال تصوير العرب على أنهم «برابرة»، وأن دعوتهم بالإضافة إلى أنها دينية فهي تحضّرية أيضًا، وهذا ما أجّج معارضة بعض رجال الدين لهذه الحركة والفكرة الصهيونية الاقتلاعية الاستيطانية.

اقتصاديًا، طمحت الحركة الصهيونية لتركيز التبرّعات إلى يهود العالم بين يديها، وفي ذات الوقت، استغلت قضية التبرّعات كورقة ضغط على المؤسسات الدينية المعارضة لها ولفكرة إقامة الوطن القومي لليهود على أرض فلسطين، خاصة في بداية الهجرة اليهودية الصهيونية المنظّمة إلى فلسطين، إذ في هذه الفترة تحديدًا، عارض غالبية اليهود المقيمين في القدس خاصة عملية التحوّل القومي لليهود من خلال رفض الحركة الصهيونية والفكرة التي أتت بها خوفًا من تأثيرها على اليهود المقيمين في المدينة قبل احتلالها، إلّا أن حدود هذه المعارضة، بحسب الحاخام رفائيل هريش، أشد المعارضين حينه للصهيونية، بقي في حدود الالتزام بالتوراة وطقوسها فقال إنه «لا أستطيع استيعاب فكرة انتماء يهودي إلى تنظيم يدّعي أنه قام لأجل أهداف يهودية في ذات الوقت الذي يبقى فيه زعيم هذا التنظيم غريبًا عن اليهودية وكل ما يتعلّق بالديانة اليهودية»، في إشارة إلى ثيودور هرتسل الذي انتهك بحسبهم حرمة يوم السبت. إلّا أن معارضة هيرش ومقولته الرافضة للحركة الصهيونية التي أصبحت فيما بعد

حجّة المعارضين للفكرة، جاءت رفضًا للصهيونية وليس الشخص، إذ قال إن الباب في التوراة مفتوح لكل من أخطأ وتمرّد عليها، إلّا أنه لا مكان للغفران على خطيئة ممنهجة ومنظّمة، مشيراً إلى الحركة ذاتها.

إن النقاش ما بين اليهودية الحريدية الرافضة والمعارضة للصهيونية، وصل في بعض الأحيان إلى المحرقة التي تعدّ أكثر القضايا حساسية بالنسبة لليهود في العالم. حيث تمركز النقاش الذي احتدم في بعض الأحيان حول أسباب المحرقة وتبعاتها، التي رأى فيها اليهود الحريديم المعارضون عقابًا من الله على ترك التوراة والعلمنة التي اجتاحت اليهود في أوروبا، وفي المقابل اعتبرها الصهاينة نتاج الضعف اليهودي. واستمراراً لفكرة شعب الله المختار، فإن الدعوة التي وجّهها الحريديم وقادتهم المعارضون للصهيونية بعد المحرقة، كانت العودة إلى الدين والتوراة واستخلاص العبر من الكارثة التي اعتبروها إلهية ناتجة عن توقّف الرب عن حماية اليهود ومعاقبتهم جماعيًا. ومع دعوة الحركة الصهيونية ليهود العالم بالهجرة إلى فلسطين لإقامة وطنهم القومي بادّعاء الحماية، خرجت الأصوات التي اعتبرت هذه الخطوة، أي الصهيونية وفكرتها، حربًا جديدة مع الذات الإلهية. فالحاخام الألماني الذي عارض الصهيونية قبل النازية وبعدها، الحاخام شمعون شواب، قال إن هدف القومية اليهودية هي إخراج الرب من حياة اليهود، متهمًا الصهيونية بإعلان الحرب على الله. وقال إنه لطالما ترفض قيادات الصهيونية العودة إلى اليهودية والاعتراف بالخطيئة فالخلاص لن يأتي. وأضاف أن الصهيو- اشتراكية التي تهدّد يهود أوروبا نتاج ما سجد له اليهود قبل المحرقة، وهو: القومية والاشتراكية. وعلى ما يبدو، فإنها الخطيئة التي أدت إلى المحرقة بحسبه. أمّا الكاتب رافكين، فيذهب في كتابه حول اليهودية والصهيونية هذا إلى القول إن ما يعانيه اليهود في البلاد، أي المقاومة المستمرة لهم منذ أكثر من مئة عام على أرض فلسطين، ما هو إلّا عقاب ربّاني على ممارسات الصهيونية والعلمانية التي يمر بها المجتمع الإسرائيلي.

عن الكاتب: يعكوف رافكين يهودي من أصول روسية، ولد في لينينغراد بروسيا ودرس فيها دراسته الأكاديمية الأولى، ومن ثم انتقل إلى موسكو. عندما بلغ جيل ٢٣ عامًا استقر فترة قصيرة في مدينة القدس، وعمل كمستشار مختص في شؤون استقطاب العلماء اليهود في مكتب رئيس الوزراء الإسرائيلي. وانتقل بعدها إلى بولتيمور ومونتريال، بدأ يتقرّب من الدين اليهودي شيئًا فشيئًا بعد أن ترك القدس، وأصبح فيما بعد متدينًا متبنيًا للشريعة المغربية التوراتية على الرغم من كونه من أصول روسية.